نظرية الإمامة
الإمامة في أهل البيت عليهم السلام

السيد محمد باقر الحكيم

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

قد يطرح سؤال : وهو أنه إذا سلمنا بضرورة استمرار خط الإمامة بعد الرسالة الخاتمة ، فلماذا كان خط الإمامة مستمراً في خصوص أهل البيت عليهم السلام ، وهذه الأسرة الشريفة الطيبة ، هل أن القضية مجرد قضية تشريف وتكريم لرسول الله صلى الله عليه وآله ، فجعلت الإمامة في أهله وأسرته ، أو أن هناك شيئاً أهم وأعظم وأوسع من ذلك بالنسبة لاستمرار الإمامة في أهل البيت عليهم السلام ؟

كان يمكن أن يفترض نظرياً أن يكون الأئمة المعصومون في أسرة، ووسط آخر غير هذا البيت الشريف ، كما عرفنا في التاريخ الإنساني والرسالي وجود أسر وجماعات أخرىٰ كان فيها أئمة معصومون ، كما

هو الحال في إسحاق وإسماعيل من ذرية إبراهيم عليه السلام ، وكما في الأنبياء من ذرية يعقوب الذي يسمىٰ في القرآن الكريم بإسرائيل ، فإن هؤلاء كانوا يتصفون بالعصمة ـ أيضاً ـ وكان بعضهم له دور الإمامة في حركته الرسالية ، ومن ثم فلماذا كان اختصاص الإمامة في خصوص أهل البيت عليهم السلام ، فهل أن القضيّة ـ كما أشرنا ـ هي قضية تكريم وتشريف لرسول صلى الله عليه وآله باعتباره الرسول الخاتم ، فأراد الله تعالىٰ أن يكرّمه ويشرّفه بذلك ، ويجعل ذلك نعمة منه سبحانه وتعالىٰ علىٰ هذا العبد الصالح الذي أفنىٰ كل وجوده في سبيل الإسلام وفي سبيل الله وفي سبيل تكامل مسيرة الإنسان ، أو أن تكون القضية تعويضاً إلهياً عن الجهود التي بذلها في سبيل الله والحق والعدل والإنسانية ، كما قد يفهم ذلك من قوله تعالىٰ : ﴿...قُل لا أسئلكُمْ عليْهِ أجْراً إلّا المودةَ في القربىٰ ...﴾[1] ، فيكون أجراً له على ذلك ، وإنما اختص هذا الأجر به دون بقية الأنبياء الذين أكد القرآن علىٰ أنهم لا يبغون أجراً علىٰ رسالتهم إلا الإيمان بالله تعالىٰ ، لأن النبي صلى الله عليه وآله قد بذل جهداً لم يبذل مثله أحد من الأنبياء ، وقد تحمل من الآلام والمحن ما لم يتحمله أحد قبله ولا بعده ... أو أن هناك شيئاً آخر غير موضوع التكريم والتشريف ؟

هنا يمكن أن نشير بهذا الصدد إلىٰ عدة نقاط ـ أيضاً ـ مع قطع النظر عن الروايات التي وردت في هذا الموضوع والاستدلال علىٰ إمامة أهل البيت عليهم السلام من خلال النصوص الشريفة التي دلت علىٰ إمامتهم[2] .

---

(١) الشورىٰ : ٢٣ .

(٢) هذا البحث له محله الخاص، وهو بحث كلامي عقائدي له أساليبه وأدلته وبراهينه الخاصة به ـ أيضاً ـ نتناوله في محله، وإنما نريد في هذا البحث أن نفسر هذه الظاهرة، ظاهرة تعيين الإمامة ←

التكريم والتشريف :

النقطة الأولىٰ : هي قضية التكريم والتشريف التي أشرنا إليها في طرح السؤال ، حيث نلاحظ من خلال القرآن الكريم ومسيرة التاريخ الرسالي لكل الرسالات الإلهية أن الله تعالىٰ شاء بلطفه وكرمه وفضله علىٰ أنبيائه بأن يجعل من ذرياتهم أئمة ، وهداة يقومون بهذا الواجب الإلهي ، تكريماً لهم ونعمة منه تعالىٰ عليهم ، وكان هذا التكريم في الوقت نفسه رغبة وأمنية من أمنيات الأنبياء أنفسهم ، تعبّر عن حالة فطرية في الإنسان الكامل ، هي الاتجاه والرغبة إلىٰ البقاء والاستمرار من خلال ذريته ، وقد أكد هذه الحقيقة الفطرية القرآن الكريم والسنّة النبوية الشريفة في عدة مواضع[1] .

إذن فهذه القضية هي قضية ترتبط بكلا الجانبين ، الجانب الإلهي الخالق المنعم الكريم الجواد المتفضل علىٰ أنبيائه ، المجيب لدعائهم وندائهم ، وبالجانب الإنساني العبودي ، المتمثل بهؤلاء الأنبياء الذين أخلصوا لله تعالىٰ في العبودية ـ أيضاً ـ فإنه من جملة إخلاصهم وإحساسهم بالعلاقة الأكيدة مع الله تعالىٰ ، إنهم كانوا يتمنون علىٰ الله ويرجون منه ويدعونه في أن يجعل من ذرياتهم أئمة وهداة ، يضمن لهم البقاء والاستمرار في عبوديتهم لله تعالىٰ ، ودورهم ومهتهم في الحياة الإنسانية .

فهذا إبراهيم عليه السلام ـ وهو شيخ الأنبياء ـ ، عندما خاطبه الله تعالىٰ وابتلاه بكلمات من عنده ؛ فجعله إماماً للناس ﴿ **وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن**

← وتشخيصها في خصوص أهل البيت (ع) تفسيراً ينسجم مع الأطر العامة التي جاء بها الإسلام، وأكدها القرآن الكريم، وترتبط ـ أيضاً ـ بمسيرة الإنسان وتكامله.

(١) هذا بحث قرآني واجتماعي مهم يرتبط بدراسة علاقة الإنسان بذريته، وشعوره بالبقاء والخلود من خلالها.

قال إني جاعلك للناس إماماً ...﴾ ، كان أول شيء يطرحه على الله تعالىٰ ويرجوه منه ؛ عندما يحمّله الله تعالىٰ هذه المسؤولية ، هو أن تكون هذه الإمامة في ذريته ـ أيضاً ـ ﴿...قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظلمين﴾[1] .

وكذلك الحال في إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يقيمان دعائم البيت ﴿وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم﴾ ، هؤلاء في البداية يطلبون القبول من الله تعالىٰ لهذا العمل العظيم، ثم يدعوانه تعالىٰ أن يكونا مع ذريتهما من المسلمين المهتدين المنيبين إليه المقبولين لديه ، ﴿ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أُمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم﴾ .

ثم لا يكتفون بأن تكون هذه الذرية ذرية مسلمة مهتدية مقبولة ، بل تترقىٰ هذه الدعوة بأه يطلبوا أن تكون هذه الذرية ذرية تتحمل مسؤولية النبوة والرسالة ـ أيضاً ـ ﴿ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلّمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم﴾[2] .

ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله يفتخر ويقول : «أنا دعوة أبي إبراهيم عليه السلام»[3] ، يعني كان يرىٰ نفسه في تحمّله لهذه الرسالة ، أن ذلك كان استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام عندما كان يرفع القواعد من البيت .

الإمامة في الذرّيّة سنة :

النقطة الثانية : إننا نلاحظ في دراستنا لتاريخ الأنبياء والمرسلين ، أن هذا التكريم قد تحول إلىٰ سنّة من السنن الواضحة في التاريخ الرسالي ، وذلك عندما نرجع إلىٰ القرآن الكريم ومفاهيمه وآياته وتصوره لحركة

---

(١) البقرة : ١٢٤ .

(٢) البقرة : ١٢٧ ـ ١٢٩ .

(٣) البحار ١٢ : ٩٢، حديث ١ .

الرسالات الإلهية والأنبياء، ومن ذلك ما نقرؤه في قوله تعالىٰ: ﴿وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم علىٰ قومه نرفع درجت من نشاء إن ربك حكيم عليم * ووهبنا له إسحاق ويعقوب كلا هدينا ونوحاً هدينا من قبل ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسىٰ وهارون وكذلك نجزي المحسنين * وزكريا ويحيىٰ وعيسىٰ وإلياس كل من الصالحين * وإسماعيل واليسع ويونس ولوطاً وكلاً فضلنا علىٰ العالمين * ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم﴾[1]، فعندها نجد أن القرآن الكريم يتحدث عن إبراهيم عليه السلام وكيف جعل الله تعالىٰ في ذريته النبوة، ويذكر مجموعة من أسماء الأنبياء من ذريته بدون ترتيب زماني، ثم يشير إلىٰ أمرين يمكن أن نفهم منهما هذه السنة التاريخية:

أولهما: الانتقال بالإشارة إلىٰ نوح عليه السلام ﴿ونوحاً هدينا من قبل﴾ ليربط هذا التاريخ بما قبل إبراهيم عليه السلام.

ثانيهما: تعميم النعمة علىٰ الآباء والذريات والإخوان، مما يفهم منه القانون العام ﴿ومن آبائهم وذرياتهم وإخوانهم﴾ ليربط هذا التاريخ بما قبل إبراهيم عليه السلام.

ثالثهما: تعميم النعمة علىٰ الآباء والذريات والأخوان، مما يفهم منه القانون العام ﴿ومن أبائهم وذريٰتهم وإخوانهم﴾.

وهكذا ما ورد في سورة مريم، عندما تحدث القرآن الكريم عن مجموعة من الأنبياء: إبراهيم وبعض ذريته وإدريس قبل إبراهيم ثم يختم الحديث بالقانون العام ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيّين من ذرية آدم وممّن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممّن هدينا واجتبينا إذا تتلىٰ

(١) الأنعام: ٨٣ ـ ٨٧.

عليهم آيٰت الرحمٰن خروا سجداً وبكيّاً﴾[1] .

والشيء نفسه ـ أيضاً ـ يذكره القرآن الكريم في سورة الحديد ، ولكن علىٰ نحو الإشارة ، وذلك عندما يتحدث عن نوح وإبراهيم عليهما السلام ، حيث جعل في ذريتهما النبوة ، قال تعالىٰ : ﴿ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتٰب فمنهم مهتدٍ وكثير منهم فٰسقون﴾[2] . وموارد أخرىٰ لا يسع المجال لتفصليها .

إذن فهذه من السنن التي كانت تحكم مسيرة الرسالات الإلهية ، فلا نرىٰ غرابة في أن هذه السنّة تجري ـ أيضاً ـ في هذه الرسالة الخاتمة ، بل هي امتداد لسنّة إلهية ، شاء اللّٰه أن يجعلها حاكمة علىٰ مسيرة الأنبياء والمرسلين منذ بداية الرسالات الإلهية وإلىٰ نهايتها .

وإذا أخذنا بنظر الاعتبار أن الإمامة بدأت من نوح عليه السلام ـ كما يذهب إلىٰ ذلك العلامة الطباطبائي وشهيدنا الصدر «قدس سرهما» ـ فقد نرىٰ أن التأكيد في القرآن الكريم علىٰ نوح وإبراهيم عليهما السلام ، وجعل النبوة في ذريتهما ، إنما هو إشارة إلىٰ قضية الإمامة واستمرارها في ذرية هذين النبيّين ، ولا سيما أن النبي صلى الله عليه وآله هو ـ أيضاً ـ من ذرية إبراهيم عليه السلام ، حيث أنه ينتمي إلىٰ إسماعيل عليه السلام ، وإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ونبينا هو دعوة إبراهيم عليه السلام ، وبذلك تصبح القضية مرتبطة تماماً بهذه السلسلة المباركة للأنبياء من ناحية ، وهذه السنّة التي كتبها اللّٰه تعالىٰ في الرسالات الإلهية، وهي سنة التكريم والتشريف لهم ، والنعمة الإلهية عليهم .

حكمة الإمامة في الذرية :

النقطة الثالثة: وهي أن قضية التشخيص في أهل البيت عليهم السلام ، ليست

(١) مريم : ٥٨ .

(٢) الآية : ٢٦ .

مجرد عملية تكريم وتشريف وفضل ونعمة أنعم بها اللّه تعالىٰ على أنبيائه ، بل أن وراء ذلك أموراً أخرىٰ ، يمكن أن نلاحظها عندما نريد أن ندرس هذه الظاهرة، وهي أمور ذات أبعاد: غيبية، وتاريخية، ورسالية، وإنسانية.

وهذه الأبعاد التي يمكن أن نلاحظها من خلال دراستنا للقرآن الكريم ومراجعتنا ومطالعتنا للرسالة الإسلامية قد تفسر النقطتين السابقتين ، ببيان الحكمة في هذا التكريم الإلهي ، وهذا الاتجاه الفطري في الإنسان الذي تحوّل إلى سنّة في مسيرة الأنبياء ، واللّه سبحانه وتعالىٰ أعلم .

البعد الغيبي :

أما ما يتعلق بموضوع البعد الغيبي ، فهنا نلاحظ أن اللّه تعالىٰ خلق الإنسان بصورة وحقيقة ميّزه فيها على بقية المخلوقات ، وجاء التعبير عن ذلك بالنفخ فيه من روح اللّه ، قال تعالىٰ : ﴿ **ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون** ﴾[1] ، فالإنسان ليس موجوداً مادياً متمحضاً في الجانب المادي فقط ، وإنما فيه عنصر غيبي ، وهذا العنصر الغيبي امتياز ، شاء اللّه تعالىٰ أن يتعامل معه ـ أيضاً ـ من خلال الغيب ، بمعنىٰ أن هناك الكثير من الأسرار في حركة الإنسان وحركة التاريخ الإنساني ترتبط بالغيب ، ولم يشأ اللّه تعالىٰ أن يكشف هذه الأسرار للإنسان في هذا العالم ، ولكن قد يكون لهذه الأسرار أثر في تكامل حركة الإنسان في حياته الدنيوية التي لها إرتباط ـ أيضاً ـ بالغيب في هذا العالم المشهود ، وكذلك التكامل في حياته الأخروية ، لأن الحياة المادية الدنيوية لهذا الإنسان هي حياة محدودة ، والحياة الحقيقية ـ كما يعبّر القرآن الكريم ـ إنما هي الحياة الآخرة ، ﴿ **وما هذه الحياة الدنيا إلّا لهو**

(١) السجدة : ٩.

ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾[1]، وهي الحياة الممتدة الطويلة الأبدية الخالدة، وهذه الحياة الحقيقية هي حياة غيبية.

فهناك الكثير من الأسرار ذات العلاقة بالإنسان، وحياة هذا الإنسان لم تكشف لهذا الإنسان، ولها تأثير في حياته في العالم الآخرة، بل ومن خلال حركة الإنسان ـ أيضاً ـ في هذه الدنيا.

وهذا الأمر لابد أن نؤكد عليه دائماً في تفسير الكثير من الظواهر الإنسانية، فإنه لا يمكن أن نفسر الظواهر الإنسانية بالتفسيرات المادية فقط، لوجود الجانب الغيبي في الإنسان، ومن ثم فلا بد أن نفترض وجود جانب من التفسير يرتبط بهذا الغيب.

وهذا الأمر ليس مجرد فرضية واحتمال عقلي، وإنما يمكن أن نجد له شواهد من القرآن الكريم ـ أيضاً ـ فقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الجانب الغيبي في الإنسان وحركته التكاملية ـ كما ذكرنا ـ ومن ثم فيمكن أن نفترض في أهل البيت عليهم السلام ـ كما ورد في النصوص والروايات عن النبي صلى الله عليه وآله وعن أهل البيت عليهم السلام ـ وجود أسرار غيبية ترتبط بجعل الإمامة بأهل البيت عليهم السلام، لها تأثير في حركة الإنسان وتكامل هذه الحركة.

أما الشواهد القرآنية التي تتحدث عن ارتباط الحركة التكاملية للإنسان بالغيب، فهو ما نلاحظه في مجموعة من المؤشرات:

الأول: ما ذكرناه من أن الله تعالى خصّ الإنسان من دون جميع الكائنات بهذا الوصف الخاص وهو أنه نفخ فيه من روحه.

إذن، فهذا الإنسان موجود ومخلوق يختلف عن بقية الكائنات التي لم توصف بمثل هذا الوصف، وترتبط بالله تعالى هذا الربط في جانب الخلقة.

---

(١) العنكبوت: ٦٤.

الثاني: ما يشير إليه القرآن الكريم في مجال خلق الإنسان من أن الله تعالىٰ عندما خلق الإنسان، أخذ عليه عهوداً ومواثيق في عالم الغيب، وليس في عالم الشهود والعالم المادي، كما يبدو ذلك من القرآن الكريم، قال تعالىٰ: ﴿**وإذ أخذ ربّك من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم وأشهدهم علىٰ أنفسهم ألست بربكم قالوا بلىٰ شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنّا عن هذا غافلين**﴾[1]، يعني أن الله تعالىٰ انتزع من ظهور هؤلاء الناس ذريات، ثم بعد ذلك أشهدهم علىٰ حقيقة من الحقائق الرئيسية في الكون والحياة وهي (الربوبية).

وهذه الشهادة، لا ندركها الآن كأفراد نعيش الحالة المادية، فلا ندرك ونتذكر هذا الجانب من الشهادة والعهد والميثاق الذي أخذه الله سبحانه وتعالىٰ علىٰ بني آدم في ذرياتهم، وشهدوا واعترفوا بذلك، وأنه سوف يحاسبهم الله تعالىٰ في يوم القيامة ـ أيضاً ـ علىٰ هذه الشهادة، لئلا يقول الإنسان في يوم القيامة إني كنت غافلاً عن ذلك، فتكون الحجة لله.

نحن الآن لا ندرك ذلك بصورة مشهودة، فهو أمر غيبي في خلق الإنسان، نعم قد ندرك بفطرتنا وبوجداننا هذه الحقيقة المعبّرة عن هذا الجانب الغيبي، وهذا الاعتراف بالحقيقة الإلهية، عندما تكون الفطرة سليمة. ولكن هذا المشهد الذي يشير إليه القرآن الكريم في هذه الآية الكريمة لا نحس به في حالتنا المادية ـ وإن كنا ندرك الحقيقة في وجداننا وفطرتنا، من خلال إيماننا بالله تعالىٰ والاعتراف بالربوبية له تعالىٰ ـ وإنما هو مشهد غيبي يتحدث عنه القرآن الكريم في أصل خلق الإنسان، ومن ثم فهناك عنصر غيبي يتحكم في هذا الجانب.

الثالث: والذي يمكن أن نستنبطه من القرآن الكريم ـ أيضاً ـ هو حديث

---

(١) الأعراف: ١٧٢.

القرآن الكريم الواسع والكثير ، الذي يمتد في عدد كبير من الآيات والمناسبات والآفاق حول (الاصطفاء) و(الاجتباء) في حركة التاريخ .

القرآن الكريم في آيات كثيرة ومنها قوله تعالىٰ : ﴿إن الله اصطفىٰ آدم ونوحاً وآل ابراهيم وآل عمران علىٰ العالمين * ذرية بعضها من بعض والله سميعٌ عليم﴾[1] ، يتحدث عن ظاهرة الاصطفاء كظاهرة غيبية ، وقضية من القضايا الإلهية الغيبية سارية ـ أيضاً ـ في حركة التاريخ ، اصطفىٰ اللّه تعالىٰ آدم اصطفاءاً خاصاً ، واصطفىٰ نوحاً ، ثم إبراهيم وآل إبراهيم ، ثم اصطفىٰ عمران وآل عمران ، وكذلك أكّد القرآن الكريم أن هذا الاصطفاء ليس أمراً واقفاً علىٰ هذه الأسماء وهذه الجماعات ، وإنما هي قضية ذات امتداد في الذرية ، ذرية بعضها من بعض ، يعني حركة تاريخية تتحرك في التاريخ الإنساني ، يمكن أن نسميها حركة الاصطفاء ، وكذلك قد تكون حركة في الأسرة أو في الجماعة والأمة .

إذن ، فلماذا لا يمكن أن نفترض وجود هذه الحركة وهذا العامل الغيبي في اصطفاء اللّه تعالىٰ لآل محمد ﷺ ؟ وهو ـ أيضاً ـ ما يشير إليه القرآن الكريم في مثل قوله تعالىٰ : ﴿إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا﴾[2] ، ويتم تأكيد ذلك ـ أيضاً ـ في آية المباهلة وغيرها .

إذن فيمكن أن يكون هذا سرّاً من الأسرار الإلهية الغيبية ، التي لها دلالات معروفة ـ كما سوف نشير إلى بعضها ـ ولكن لها ـ أيضاً ـ دلالات وآثار في حركة التاريخ ، وتكامل الإنسان الدنيوي لا نعرفها في فهمنا المادي المحدود لحركة التاريخ ، ويكون لها ـ أيضاً ـ أبعاد في مستقبل حياة الإنسان الأُخروية .

---

(١) آل عمران : ٣٣ ـ ٣٤، وهناك آيات عديدة، يمكن أن يجدها الباحث في مادة الاصطفاء والاجتباء وغيرها، في المعجم المفهرس .

(٢) الأحزاب : ٣٣ .

البعد التاريخي :

البعد الثاني : البعد التاريخي ، وقد أشار الشهيد الصدر ﷺ ـ في ما كتبه حول خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء ـ إلى هذا البعد التاريخي ، إذ يذكر أننا نلاحظ في تاريخ الأنبياء والرسالات الإلهية أن اللّه تعالىٰ اختار الأوصياء والقادة ـ كما يعبّر الشهيد الصدر ﷺ ـ من أولئك الأقربين للأنبياء من أقاربهم أو ذرياتهم ، وهذا نص كلامه : (في تاريخ العمل الرباني علىٰ الأرض نلاحظ أن الوصاية كانت تعطىٰ غالباً لأشخاص يرتبطون بالرسول القائد ارتباطاً نسبياً أو لذريته[1] .

وهذه الظاهرة لم تتفق في أوصياء النبي محمد ﷺ فحسب ، وإنما هي ظاهرة تاريخية اتفقت في أوصياء عدد كبير من الرسل . ويشير الشهيد الصدر ﷺ كشاهد علىٰ هذه الحقيقة إلى الآيات القرآنية ، كقوله تعالىٰ : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم وجعلنا في ذريتهما النبوة والكتاب ... ﴾[2] ، وكذلك قوله تعالىٰ ، في الآيات السابقة ٨٣ ـ ٨٧ من سورة الأنعام .

إذن ، فهذه الظاهرة تاريخية ، ومن ثم فقد طبّقت ـ أيضاً ـ علىٰ رسالة النبي ﷺ ، باعتبار أن الرسالة الخاتمة وإن كانت هي رسالة كاملة ، وبكمالها تتميز علىٰ الرسالات السابقة ، ولكن هذه الرسالة الخاتمة هي في الحقيقة امتداد لتلك الرسالات الإلهية ، والنبي ﷺ جاء من أجل أن يصدِّق تلك الرسالات ، ثم يهيمن عليها ، وقد ورد في أحاديث رسول اللّه ﷺ ما يؤكد ذلك ، وأن ما تشهده هذه الرسالة الخاتمة يتطابق تماماً مع ما شهدته الرسالات السابقة ، حتىٰ جاء التعبير في

---

(١) الإسلام يقود الحياة، خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء : ١٦٦، كما في لوط ﷺ الذي كان يرتبط بإبراهيم، أو في يوشع الذي كان يرتبط بموسىٰ، أو يرتبطون به وبذريته، وكما هو الحال في إسحاق وإسماعيل ويعقوب وذرية يعقوب التي أشرنا إليها.

(٢) الحديد : ٢٦ .

مقام التطبيق الكامل قوله ﷺ : «لتركبن سنّة من كانت قبلكم حذو النعل بالنعل ...»[1].

إذن، فإذا كانت هذه الظاهرة هي ظاهرة تاريخية في الرسالات الإلهية، وهو أن تكون الوصاية في أقرباء النبي القائد؛ فلماذا تختلف الرسالة الإسلامية ـ بعد فرض ضرورة الإمامة واستمرارها ـ عن هذه الظاهرة التاريخية التي هي موجودة في كل الرسالات الإلهية ؟!

ولكن هذه الظاهرة التاريخية تحتاج إلى تفسير تاريخي، ولعل ذلك ـ والله العالم ـ لأحد أمرين :

الجذر التاريخي ودوره :

الأمر الأول : إن الوصي والإمام عندما يكون له هذا الجذر التاريخي والارتباط النسبي بالرسالة؛ يكون إحساسه بالانتماء إليها وشعوره بالمسؤولية تجاهها، متجذراً بدرجة عالية جداً، وذلك حينما يرىٰ في نفسه فرعاً من شجرة طيبة أصيلة، تمتد في جذورها الرسالية عبر القرون في التاريخ الرسالي والإنساني، وتمدّه بالعزم والإرادة والصبر والصمود والقدرة علىٰ تحمل المحن والآلام والشدائد؛ والانتصارات والتقدم والبركة الإلهية التي شهدتها هذه الشجرة الطيبة في تاريخها.

ويؤكد هذا التفسير عدة مؤشرات، يمكن أن نلاحظها في القرآن الكريم :

الأول : تأكيد القرآن الكريم علىٰ الجذر التاريخي للرسالة الإسلامية،

---

(١) البحار ٢٨ : ٨، حديث ١١، عن تفسير القمي، وجاء هذا الحديث في كتب الفريقين، إما بلفظه أو بمضمونه، مثل مجمع البيان ٥ : ٤٩، وكمال الدين : ٤٧٦، طبعة مكتبة الصدوق، وصحيح البخاري : باب ٥٠ من كتاب الأنبياء، وصحيح مسلم الحديث ٦ من كتاب العلم، سنن ابن ماجة باب ١٧، من كتاب الفتن ... الخ.

مع أن الرسالة الإسلامية هي أفضل الرسالات الإلهية ، وهي الرسالة المهيمنة عليها ـ كما ذكرنا ـ وهي الرسالة الخاتمة ، ورسولها أفضل الأنبياء على الإطلاق ، ومع ذلك كله كان القرآن الكريم يؤكد على هذا الجذر التاريخي والانتماء للأنبياء السابقين ، ولا سيما إبراهيم عليه السلام الذي ينسب إليه القرآن الكريم الإسلام في مواضع عديدة ، منها قوله تعالى : ﴿ إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لربِّ العالمين * ووصّى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بَنيّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتنَّ إلّا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموتُ إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلهاً واحداً ونحن له مسلمون ﴾[1] .

بل أن إبراهيم عليه السلام هو الذي سمّى الأُمة الخاتمة بهذا الإسم منذ البداية ، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى : ﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير ﴾[2] .

الثاني : ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾[3] ، فقد ذكرنا سابقاً أن وجود رسول الله كان بدعوة من إبراهيم عليه السلام ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يفتخر بأنه كان دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام .

الثالث : ذكْر القرآن لقصص الأنبياء وتأكيده أن أحد الأهداف لذلك هو تثبيت النبي ، وطلب الصبر والثبات منه تأسياً بالأنبياء السابقين ﴿ فاصبر

---

(١) البقرة : ١٣١ ـ ١٣٣ .
(٢) الحج : ٧٨ .
(٣) البقرة : ١٢٩ .

كما صبر أولوا العزم من الرسل ...﴾[1].

الأمر الثاني: أن سنة الله في التاريخ تكامل الرسالات الإلهية تدريجياً، وهي تمرّ عبر الرسالات المتعددة التي يكمل بعضها بعضاً، كذلك الحال في تكامل الرسل والأنبياء والمرسلين، فإنها يمكن أن تكون سنة تمرّ عبر التكامل في الجذر التاريخي للحركة والاستمرار في الذرية وأهل البيت.

وهذه السنّة هي سنّة قائمة في كثير من مخلوقاته عزّوجل، فالشجرة الطيبة القوية المثمرة هي الشجرة الضاربة الجذور في الأرض، بخلاف الشجرة الخبيثة.

وكذلك الكلمة الطيبة التي هي كالشجرة الطيبة التي ضربها الله مثلاً لها، فإنها هي التي تكون لها أصول وجذور.

قال تعالىٰ: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبةً كشجرةٍ طيبةٍ أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أُكلها كل حينٍ بإذن ربّها ويضرب الله الأمثال للناس لعلّهم يتذكرون﴾، وهذا بخلاف الكلمة الخبيثة، فهي كالشجرة الخبيثة، قال تعالىٰ: ﴿ومثل كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾[2].

البعد الرسالي:

البعد الثالث: البعد الرسالي، وما يترتب علىٰ ذلك من تحقيق مصالح الرسالة وإعداد الأفراد لمهمّاتها ومسؤولياتها، وتحمل أعبائها الثقيلة.

فقد عرفنا في جواب السؤال الأول أن عمر الرسول ـ عادة ـ يكون

---

(١) الأحقاف: ٣٥.

(٢) إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٦.

أقصر من عمر الرسالة وأعبائها ومهمّاتها، وهذا ما شاهدناه ـ أيضاً ـ في الرسالة الإسلامية، فقد كان عمر رسول اللّه ﷺ محدوداً بالنسبة إلى أعبائها ومهمّاتها، حيث توفي رسول اللّه بعد مضي ثلاث وعشرين سنة من البعثة الشريفة، وبالرغم من الجهود المضنية التي بذلها، والإنجازات العظيمة التي حقّقها في هذه المدة القصيرة، فقد بقيت أعباء الرسالة الإسلامية العالمية قائمة وموجودة إلى حد كبير في مجال التفهيم والتوضيح، وفي مجال التطبيق والتنفيذ، حيث لم تتجاوز المساحة التي انتشر فيها الإسلام الجزيرة العربية، من حيث الحركة والقدرة والسيطرة، وإن كان قد خاطب رسول اللّه بها الأقوام المجاورين للجزيرة، أو دخل في بعض المعارك العسكرية معهم.

بل كانت بعض الجيوب والمناطق في الجزيرة العربية نفسها لا زالت غير مستكملة في التفاعل مع الرسالة الإسلامية، كما يشير القرآن الكريم إلى ذلك في الحديث عمن يطلق عليهم اسم الأعراب، من أولئك الناس الذين كانوا يعيشون في البوادي ولم يتعلموا الإسلام أن يتخلّقوا بأخلاقه.

أو المؤلفة قلوبهم من ضعفاء الإيمان والاعتقاد من العرب الجاهليين الذين استسلموا للواقع السياسي والاجتماعي للهيمنة الإسلامية والنصر الإلهي، فأعلنوا دخولهم في الإسلام، وإن لم يبلغ الإيمان قلوبهم.

أو أولئك المنافقون الذين أظهروا الإسلام، ولكن أضمروا الكفر والعصيان والتمرد، ويشير القرآن الكريم إلى هذه النماذج في كثير من الموارد، ومنها في سورة التوبة والحجرات والمنافقين.

وأفضل شاهد على هذه الحقيقة السياسية والاجتماعية هو ما شاهده

المسلمون من حركة الارتداد بعد وفاة رسول الله مباشرة في بعض مناطق الجزيرة العربية ، أو مواقف بعض الأشخاص والجماعات السلبية من أهل بيته .

وإذا كان الوضع الثقافي والسياسي في الجزيرة العربية بهذه الصورة ؛ فكيف الحال في خارجها؟ ، ومع هذا الوضع لا يمكن أن نفترض بأن مهمّات الرسالة قد انتهت بنهاية عمر الرسولﷺ ، وإكمال عملية البلاغ العام .

نعم يمكن أن نقول بأن رسول اللهﷺ قد أنهى مهمّة التبيين وإقامة الحجّة ، ومهمّة التأسيس وإقامة القواعد الاجتماعية ، ومهمّة إيجاد الجماعة الإنسانية التي يمكنها أن تتحمل هذه الأعباء بصورة عامة .

وعندئذٍ ، فلابد من وجود الإمامة ، لتحمل هذه الأعباء الثقيلة الأخرىٰ بعده ـ كما ذكرنا سابقاً ـ ولكن تحمل هذه الأعباء الثقيلة يحتاج إلى إعداد كامل ، يتناسب مع طبيعة وحجم هذه الأعباء الضخمة ، التي سوف يتحملها هؤلاء (الأئمة) بعد النبيﷺ .

وهنا يمكن أن نقول بأن عملية الإعداد هذه التي يراد إنجازها من أجل تحمل هذه الأعباء ، إنما يمكن أن تتم في داخل البيت الرسالي بصورة أفضل وأكمل من إنجازها في خارج البيت الرسالي .

وهذا ما أشار إليه الشهيد الصدرؒ في قوله : (فاختيار الوصي كان يتم عادة من بين الأفراد الذين انحدروا من صاحب الرسالة ، ولم يروا النور إلّا في كنفه وفي إطار تربيته ، وليس هذا من أجل القرابة بوصفها علاقة مادية تشكل أساساً للتوارث ؛ بل من أجل القرابة بوصفها تشكل عادة الإطار السليم لتربية الوصي وإعداده للقيام بدوره الرباني .

وأما إذا لم تحقق القرابة هذا الإطار ؛ فلا أثر لها في حساب السماء . قال

تعالىٰ : ﴿ وإذ ابتلىٰ إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين ﴾[1].

فالذرية عادة تكون قابلة ومهيئة للإعداد الرسالي بصورة أفضل في حركة التاريخ الإنساني[2].

الإعداد والواقع التاريخي :

وهذه الفكرة ، إذا أردنا أن ننظر إليها من خلال الواقع التاريخي الذي عاشته الرسالة الإسلامية ، نراها ـ أيضاً ـ فكرة متطابقة تماماً مع هذا الواقع التاريخي ، حيث نرىٰ أن الوصي الذي كان هو الإمام عليّاً عليه السلام قد احتضنه رسول الله صلى الله عليه وآله وهو طفل صغير ، حيث تذكر بعض النصوص أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان قد تكفله بالتربية قبل البعثة ، من خلال التخفيف من مسؤوليات الإنفاق ـ أو المسؤوليات الاقتصادية إذا صح التعبير ـ عن أبي طالب .

مركز تحقيقات كامپيوترى علوم اسلامى

---

(١) البقرة : ١٢٤، الإسلام يقود الحياة / خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء : ١٦٧ .

(٢) صحيح أنه قد نشاهد ـ أحياناً ـ في داخل البيت الرسالي أشخاصاً يشذّون عن المسيرة وعن الارتباط بالرسالة، كما يذكر القرآن الكريم بعض النماذج .

ومن هذه النماذج ابن نوح عليه السلام ، عندما يذكره القرآن الكريم كنموذج لخروج ولد لرسولٍ عن أهداف الرسالة ومسيرتها.

ونموذج آخر يذكره القرآن الكريم، له بعد آخر من الخروج وهو أب إبراهيم ـ كما يعبّر عنه القرآن الكريم ـ الذي قد يكون هدف القرآن الكريم من التأكيد عليه هو تفسير موقف (أبي لهب) من النبي صلى الله عليه وآله باعتباره قريباً لرسول الله وعمه، ومع ذلك خرج علىٰ هذه الرسالة، وهو الشخص الوحيد الذي ذكره القرآن الكريم بالاسم من المشركين، أو أراد به بعض أقرباء الرسول الذين كانوا بمستوىٰ الأعمام في الحالة النسبية والارتباط برسول الله صلى الله عليه وآله .

ونموذج ثالث يذكره القرآن الكريم هو زوج نوح ولوط، كمثل لما يمكن أن تقفه الزوجة من صاحب الرسالة، فإنها وإن لم تكن من ذريته وبيته؛ ولكنها عادة ما تكون تحت تأثير عمله.

ولكن بصورة عامة وإجمالية يفترض بأن عملية الإعداد عندما يراد إنجازها بصورة كاملة، تكون أسهل وأفضل وأكمل في دائرة البيت الرسالي من إنجازها في خارج دائرة البيت الرسالي .

وبدأ الرسول صلى الله عليه وآله في هذه المرحلة بتربية علي عليه السلام ، وبذلك ـ أيضاً ـ يجمع المسلمون ـ تقريباً ـ أن علياً عليه السلام كان أول من أسلم ، وأنه لم يعرف في حياته عبادة الأصنام ، أو عبادة غير الله سبحانه وتعالىٰ ، وهذا أمر يجمع عليه المسلمون ، ولذلك عندما يذكر اسمه جمهور المسلمين ، يخصونه بدعاء (كرّم الله وجهه) ، وهم بذلك يشيرون إلى هذه الخصوصية لعلي عليه السلام ، وهذه الخصوصية إنما كانت ـ أيضاً ـ بحسب النظر إلى الظروف التاريخية ، ومن هذه الزاوية ، بسبب إعداد رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام .

طبعاً ، العنصر الغيبي ، في الاصطفاء والإعداد ـ كما ذكرنا ـ قائم في نفسه مع العناصر الأخرىٰ ، ولكن من هذه الزاوية وهذا الجانب نرىٰ ـ أيضاً ـ هذه الحقيقة قائمة .

مضافاً إلى ذلك ، ما تشير إليه النصوص التاريخية ، وتؤكده روايات بعض الأشخاص ـ حتىٰ ممن لم يكن يميل إلى علي عليه السلام من الناحية الروحية والنفسية ـ من إعداد رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام علمياً ومعنوياً ، فيما كان يسارّه في ليله ونهاره ، لأن علياً عليه السلام كان قريباً من رسول الله صلى الله عليه وآله ، بحيث كان يأخذ منه العلم والأخلاق في كل مناسبة ، بل في كل وقت .

والكلمة معروفة عن النبي صلى الله عليه وآله ، وعن علي عليه السلام بهذا الشأن ، أمّا عن النبي ، فهي عندما قال : «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**»[1] ، وأمّا عن علي عليه السلام فهي

---

(١) البحار ٢٨ : ١٩٩ ، حديث ٦ ، وجاء في مستدرك الصحيحين ٣ : ١٢٦ ، عن ابن عباس ما لفظه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : أنا مدينة العلم وعلي بابها فمن أراد المدينة فليأت الباب ، قال الحاكم : هذا حديث صحيح الإسناد ، وكذلك جاء في كنز العمال ١١ : ٦٠٠ ، حديث ٣٢٨٩٠ ، و ٦١٤ ، حديث ٣٢٩٧٨ ، و ١٣ : ١٤٧ ، حديث ٣٦٤٦٣ .

عندما قال : «علّمني رسول اللّه ﷺ ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب»[1].

هذه الحقيقة إذا أردنا أن ننظر إليها من الناحية التاريخية والمادية ؛ نراها كانت قائمة من خلال هذا الاقتراب في دائرة علي عليه السلام من النبي ﷺ ، حيث تربىٰ في حضن رسول اللّه ﷺ وهو ابن عمه ، تزوج من ابنته ، فكان رسول اللّه ﷺ يدخل إلى بيت علي كما يدخل إلى بيته ، وعلي يدخل علىٰ رسول اللّه كما يدخل إلى بيته .

هذه العلاقة كانت موجودة بدرجة عالية ، الأمر الذي أثار ـ أحياناً ـ غيرة بعض نساء النبي ﷺ أو حساسيّتهن ، أو أي تعبير آخر يمكن أن نقوله أو نعبر عنه في هذا المقام بصورة مناسبة[2].

إذن ، فمن الناحية الواقعية والخارجية ـ أيضاً ـ نشاهد بأن التاريخ يؤكد علىٰ هذه العملية وهذه الفكرة والنظرية ، وكان لها واقع خارجي في الرسالة الإسلامية ، من خلال إعداد علي عليه السلام ، وقد تحدث علي عليه السلام شخصياً فيما روي عنه عن ذلك ، كما تحدث أئمة أهل البيت ـ أيضاً ـ عن ذلك ، وهو ما سوف نشير إليه ـ إن شاء اللّه ـ في بعض الأبحاث الآتية .

---

(١) البحار ٢٦ : ٢٩ ـ ٣٠، حديث ٣٦، و٣٧، و٣٣ عن أبي عبداللّه الصادق عليه السلام، في تفسير الفخر الرازي الكبير، في ذيل تفسير قوله تعالىٰ : ﴿إن اللّه اصطفىٰ آدم نوحاً ...﴾، (آل عمران : ٣٣)، قال علي عليه السلام : علّمني رسول اللّه ﷺ ألف باب من العلم، واستنبطت من كل باب ألف باب، قال : فإذا كان حال المولىٰ هكذا فكيف حال النبي ﷺ ؟ وكذلك جاء الحديث في كنز العمال ١٣:١١٤، حديث ٣٦٣٧٢.

(٢) لهذه المقامات المقدسة والبيوت الطاهرة خصوصيات، قد يعجز الإنسان عن اختيار الألفاظ المناسبة المؤدبة، عندما يريد أن يتحدث عن بعض علاقاتها، ولكن أي حال التاريخ يشهد في كثير من النصوص، بأن هذا الاقتراب من علي عليه السلام، وعناية رسول اللّه ﷺ لعلي عليه السلام في هذا الجانب ـ جانب الإعداد والتعليم والتأهيل لتحمل هذه المسؤولية ـ كان يثير في كثير من الأحيان الحساسية أو الغيرة أو الانفعالات أو غير ذلك من الشؤون حتىٰ في دائرة الأشخاص القريبة لرسول اللّه ﷺ .

الإعداد والنظام العام :

ومن الطبيعي ـ أيضاً ـ أن نفترض ـ كما نفترض في عقائدنا ـ بأن هؤلاء الأئمة يمكن أن تتحقق لهم الإمامة دون هذا الإعداد ، لأن الله تعالىٰ قادر علىٰ كل شيء ، ولا يمنعه من إلهام الأشخاص والأفراد بكل المعلومات دون ذلك الإعداد السابق ، هذا الشيء يمكن أن نفترضه ، وفيه الكثير من الحقيقة بالنسبة إلى الكثير من الأفراد الذين عرفهم التاريخ ، ولكن في الوقت نفسه يمكن أن نفترض أن النظام العام في الحركة الاجتماعية يراد لها أن تسير في الكثير من الموارد ، حسب النظام العام ، وليس من المفروض لها دائماً أن تكون خارجة عن النظام العام ، إلّا بقدر الحاجة إلى هذا الاستثناء ، كما هو الحال في موارد المعجزة مثلاً ، وهذا يعني أنه مادام الإعداد ممكناً حسب النظام العام ؛ فسوف يتم كذلك ، ويكون الاستثناء عند الحاجة والضرورة ، فيتم الإعداد من خلال نظام آخر وهو النظام الغيبي .

إذن ، فالطريق الطبيعي للإعداد الأفضل والتأهيل الأكمل إنما يكون في دائرة البيت القريب .

ويمكن أن نرىٰ هذا الشيء في معالم أخرىٰ من التاريخ ، وفي مفردات وصور عديدة .

وهذه الظاهرة ، نراها قد تجسدت ـ أيضاً ـ في الأسر العلمية الشريفة في تاريخ جماعة أهل البيت عليهم السلام ، حيث قامت بأعمال شريفة في هذا التاريخ ، وتحملت مسؤوليات كبيرة في مختلف أدوار التاريخ .

فإننا عندما ننظر إلى تاريخ ما بعد الغيبة الصغرىٰ ، بل حتىٰ في تاريخ زمن أئمة أهل البيت عليهم السلام ؛ نلاحظ أن هناك ظاهرة كانت موجودة وقائمة في جماعة أهل البيت ، وهي ظاهرة وجود الأسر العلمية ، فمثلاً أسرة

زرارة بن أعين ، هذه الأسرة كانت تعرّف كأسرة بحيث كان جميع رجالها ثقات ، أو أسرة بني فضّال هذه الأسرة كانت ـ أيضاً ـ تعرّف كأسرة ، أو أسرة الأشعريين الذين أقاموا أُسس العلم في مدينة قم المقدسة ، أمثال سعد الأشعري وأسرته ، وهكذا نلاحظ أسرة بني بابويه الذين كان لهم دور عظيم جداً كأسرة ، حيث عندما نرجع إلى التاريخ نجد أن هؤلاء يمثلون عدداً كبيراً جداً من العلماء والفضلاء الذين كانوا يتحملون هذه المسؤوليات ، وهكذا يتسلسل هذا الأمر .

ولا أريد الآن أن أطيل الحديث في ذكر الشواهد ، ولكن عندما يرجع الإنسان إلى التاريخ ؛ يجد أن هذا الأمر كان من الأمور الواضحة جداً في جماعة أهل البيت عليهم السلام ، وفي علماء أهل البيت ، بحيث كانت هناك أسر علمية تتوارث هذا العلم جيلاً بعد جيل ، حتىٰ أوصلت هذا العلم إلى هذا العصر ، وهذا التوارث إنما كان باعتبار هذه الخصوصية ، وهي أن عملية الإعداد والتربية والتأهيل في إطار البيت الواحد تكون أسهل مما تكون هذه القضية في خارج البيت الواحد[1] .

البعد الاجتماعي :

البعد الرابع : البعد الاجتماعي ، وهو ما يترتب علىٰ الاختصاص بأهل البيت من مصالح اجتماعية ، في التأثير علىٰ حركة الأُمة وهدايتها وارتباطها بالرسالة الإسلامية وصاحبها ، حيث أن هذه الإمامة التي تريد أن تقوم بهذه المسؤوليات الكبيرة أو الضخمة في المجتمع الإنساني ، تحتاج إلى مؤهلات اجتماعية ، كما تحتاج إلى المؤهلات الروحية

(١) في العصور المتأخرة كانت هناك أسر علمية أخرىٰ من قبيل أسر آل بحر العلوم، وأسرة آل كاشف الغطاء، أسرة آل شيخ راضي، وهكذا أسرة الشيخ الأنصاري ـ من بناته ـ وقبلهم الشيخ المجلسي، والوحيد البهبهاني، وغيرهم .

والفكرية.

كما أن الناس في حركتهم الاجتماعية والروحية والنفسية يتأثرون بمثل هذا العامل الإنساني، وينظرون إلى الشرف والاصالة في الانتماء وتكامل الأسرة والعائلة والعشيرة والقبيلة نظرة معنوية وإنسانية واجتماعية خاصة.

أما بالنسبة إلى حاجة الإمامة إلى المؤهلات الاجتماعية، فهو من الأمور التي يشار إليها في أبحاث علم الكلام.

من قبيل أن لا يكون في النبي أو الإمام نقص في الأعضاء مخلاً بوضعه الاجتماعي، أو أن لا يكون النبي أو الإمام وضيعاً في المجتمع الإنساني، أو من عائلة وضيعة وغير شريفة، أو ممتهنا لحرفة ومهنة وضيعة، إلى غير ذلك من القضايا التي يشار إليها في علم الكلام عند الحديث عن مواصفات الأنبياء والأئمة الذين يتحملون هذه المسؤولية.

وأمّا بالنسبة إلى تفاعل الناس وتأثّرهم بهذا العامل الاجتماعي، فهو أمر مشهود في تاريخ الأمم والمجتمعات الإنسانية السابقة واللاحقة، يتفاضلون فيه، ويفتخرون ويتأثرون به، لأنه عامل إنساني واقعي في الحركة التاريخية، وله تأثير إيجابي في حركة الأمم وبناء المجتمع، وإن لم يكن من العوامل المؤثرة في تكامل الإنسان كفرد عند الله تعالىٰ، أو مما يدخل في حسابه يوم القيامة، كما تشير إلى ذلك النصوص الدينية، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون﴾[1]، ولكنه علىٰ أي حال من العوامل المؤثّرة في حركة التاريخ الإنساني والعلاقات الإنسانية[2].

---

(١) المؤمنون: ١٠١.

(٢) تذكر بعض النصوص استثناءاً في التأثير لنسب رسول الله ﷺ في يوم القيامة، وهو أمر يحتاج إلى بحث علمي واجتماعي لهذه النصوص، لا مجال له في حديثنا في الوقت الحاضر.

خلفيات البعد الاجتماعي :

ولعل مرجع هذا العامل إلى عدة قضايا، نفسية، واجتماعية ، وفطرية.

أمّا القضية النفسية ، فهي تأثّر الإنسان روحياً بمعالم العز والشرف والكرامة والمنجزات العلمية والاجتماعية .

وأمّا القضية الاجتماعية ، فهي ـ ما أشرنا إليه في البعد الثالث ـ من أن التأهيل والإعداد في بيوت الشرف والكرامة والعز والطهارة ، يكون بصورة طبيعية لتحمل المسؤوليات ، وإنها تنبت الشرف والكرامة والعز والطهارة بموجب السنة والقاعدة القرآنية : ﴿ والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربّه والذي خَبُثَ لا يخرج إلّا نكدا ... ﴾[1] ، وهو أمر يدركه الناس من خلال رؤيتهم للتاريخ ، وحركة النظام العام للمجتمع الإنساني ، وإن كان قد يشذّ بعضهم عن هذه القاعدة .

ولذا ورد التأكيد في الإسلام ، في عدة موارد على هذا الاتجاه في الزواج وفي المشورة ، وفي المصاحبة والصداقة والمعاشرة .

وأمّا الجانب الفطري ، فهو يرتبط بنظرة الإنسان الفطرية التي أكدتها الشريعة الإسلامية ، وهي أن تكامل المجتمع الإنساني بصورة عامة يقوم على تكامل الأسرة والعائلة والقبيلة .

وهذا بحث اجتماعي مهمّ له مجال آخر ، ولكن بنظرة إجمالية يمكن أن تقول : إن الإسلام يرى أهمية تكامل الأسرة وارتباطها وامتدادها التاريخي في القبيلة والعشيرة ، وإن ذلك هو الطريق الأفضل لتكامل المجتمع الإنساني بصورة عامة ، إذا أردنا تنظيم هذا المجتمع بصورة صحيحة ومحكمة وقوية .

وإن هذا التنظيم القوي ، يعتمد على عنصرين رئيسيين :

---

(١) الأعراف : ٥٨ .

العنصر الأول: هو إحكام علاقات الأسرة التي يفترض أن يتم إحكامها، كما حثّ الإسلام علىٰ ذلك من خلال الزواج والعلاقات الزوجية القائمة علىٰ أساس الحقوق المتبادلة، وتهيئة ظروف الاستقرار والسكن والمودة والرحمة، وكذلك من خلال الارتباط بين العشائر والقبائل والأسر المختلفه، ولذلك كان من الاتجاهات في تكوين الأسرة أن يتزوج الإنسان من خارج دائرة الأقربين، لإيجاد حالة التكامل الاجتماعي العام بين المفردات الرئيسية في المجتمع، وهي القبائل والأسر، وقد يكون في ذلك ـ أيضاً ـ تكامل جسمي (فسيولوجي)، كما يذكره الأطباء، ولكن فيه ـ أيضاً ـ تكاملاً اجتماعياً من الناحية الاجتماعية، لأن إيجاد الروابط بين القبائل والأسر يكسر الحواجز النفسية والاجتماعية الموجودة بين هذه القبائل والعشائر والأُسر، التي قد تكون معيقة لتكامل المجتمع وحركته عندما تصبح كبيرة وعالية، وتمنع من وحدة المجتمع، وتخلق العصبية العشائرية أو الاجتماعية، وبذلك تصبح الأسرة والعشيرة أحد الأعمدة الأساسية والرئيسية في البناء القوي للمجتمع في نظرية الإسلام.

العنصر الثاني: هو قضية بناء العشيرة والقبيلة نفسها، حيث يمكن أن يقال بأن هناك اتجاه في الإسلام إلى تثبيت دعائم العلاقات الأسرية والقبلية والعشائرية، لا إلى تفكيكها وإضعافها، وذلك من خلال ما ورد في التأكيد علىٰ صلة الأرحام، بدرجة تصل ـ أحياناً ـ إلى مرحلة الإلزام في الوجوب والحرمة، حسب اختلاف هذه الصلة ودرجتها، فإن قطيعة الرحم حرام، ووجود أصل الصلة واجب من الواجبات الشرعية.

وكذلك ـ من خلال ما يشير إليه القرآن الكريم ـ في قضية التوارث، حيث أن التوارث في المال وضع في إطار علاقات الأرحام، لقوله تعالىٰ:

﴿وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعضٍ في كتاب الله ...﴾[1] وحتىٰ وصل بها الإسلام إلى العلاقات البعيدة نسبياً، من قبيل علاقة الولاء، وهي عندما يدخل الإنسان في ولاء أُسرة من الأُسر، وتتقطع سلسلة الأقرباء من المواريث، فيتحول الميراث إلى الأولياء، أي إلى أولئك الذين يكونون قد دخلوا في العشيرة عن طريق علاقة الولاء، إذن، هذا يعبّر عن اتجاه لتحكيم الأواصر، وربط بعضها ببعض.

وكذلك نلاحظ أن من التشريعات الموجودة في النظرية الإسلامية التي تؤكد هذا الاتجاه، قضية وقف الذرية، فأن الوقف علىٰ أقسام ـ كما يعرف الأخوة الأعزاء والأفاضل الدّارسون للفقه ـ وأحد أقسام الوقف هو الوقف الذي يوضع لخصوص الذرية، أي يتسلسل في الورثة، ويتحول في طبقات الورثة، حسب شرط الواقف، أو يشركهم فيه، بكل طبقاتهم ومراتبهم، فإن هذا الحكم يؤشر علىٰ أن الإسلام يتجه إلى تحكيم أواصر العشيرة والأسرة الواحدة.

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإسلام والعلاقات العشائرية:

وكذلك المفاهيم الواسعة التي طرحها القرآن الكريم في تفسير المفردات الاجتماعية، وطبيعة علاقاتها، من تقسيم الناس إلى شعوب وقبائل قال تعالىٰ: ﴿يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثىٰ وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾[2].

فإن الناس وإن كانوا قد خلقوا من ذكر وأنثىٰ؛ ولكنهم قد قسّموا إلى شعوب وقبائل؛ لتقوم علاقات التعارف والتعاون بينهم، فهو تقسيم معترف به إسلامياً.

---

(١) الأنفال: ٧٥.

(٢) الحجرات: ١٣.

وهكذا عندما يتحدث القرآن الكريم عن موضوع (الولاء)، حيث يشير ـ أيضاً ـ إلى أن قضية الولاء في داخل العشيرة أمر طبيعي، مثل ولاء الآباء والأبناء والإخوان، فهو ولاء مقبول، ولكنه يجب أن يكون في إطار ولاء الله تعالىٰ، ولا يصحّ أن يخرج عن حالة الولاء لله تعالىٰ، أو أن يكون في مقابل الولاء لله تعالىٰ. وأعطىٰ القرآن الكريم عناوين عديدة لذلك في التأكيد علىٰ هذا النوع من الولاء في آيات عديدة: ﴿... وأولوا الأرحام بعضهم أولىٰ ببعضٍ في كتابِ الله ...﴾[1]، وكذلك التأكيد عليه في مجال الإنفاق علىٰ ذوي القربىٰ ـ كالتأكيد علىٰ الإنفاق علىٰ المساكين والمحتاجين ـ كمورد من موارد الإنفاق.

وفي الجملة نلاحظ في الكثير من معالم الشريعة الإسلامية وجود هذا الإتجاه، في تحكيم أواصر العشيرة والأسرة والقبيلة، لا علىٰ تفكيكها وإضعافها.

وهذا التحكيم ـ كما ذكرت ـ إنما يكون صحيحاً في إطار الشيء الأعظم والأهم من العلاقة، وهو حب الله سبحانه وتعالىٰ، والولاء لله تعالىٰ والإرتباط به، ولا يكون خارجاً علىٰ ذلك، وفي داخل هذا الإطار العام، كما أكد عليه قوله تعالىٰ: ﴿قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربَّصوا حتىٰ يأتيَ الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين﴾[2].

وبهذا نرىٰ أن الإسلام عندما أراد بناء المجتمع؛ وضع أحد الأُسس التي تحكم هذا البناء الاجتماعي، وتجعله أكثر ترابطاً، هو إحكام هذه

---

(١) الأنفال: ٧٥.

(٢) التوبة: ٢٤.

العلاقات الأسرية بين هؤلاء الناس ، وحاول في الوقت نفسه أن يعالج خطر تحوّل العشيرة إلى صنم يعبد من دون اللّه بإسلوبين :

أحدهما : تأكيد أن يكون هذا الولاء ضمن إطار الولاء للّه تعالىٰ .

والآخر : هو كسر الحواجز الاجتماعية والنفسية التي قد تنمو بين الشعوب والقبائل ، من خلال الحث علىٰ التعارف بينها والزواج ، والإتصال والمساواة في القيمة الإنسانية .

وهذا الأمر في الواقع يمكن أن يذكر كأحد العناصر المهمة في تفسير هذه الظاهرة الاجتماعية ، ولذلك نرىٰ المجتمع ينظر إلى ابن الأسرة وإلى ابن البيت الذي يكون قريباً من صاحب البيت ، ينظر له ويتفاعل معه ، نظرة تختلف عن نظرته إلى الأجنبي عن ذلك البيت ، وهذه الحقيقة من الحقائق القائمة اجتماعياً .

ولذلك نحن ننظر إلى الزهراء عليها السلام في قربها لرسول اللّه صلى الله عليه وآله من خلال أُمور كثيرة ، ولكن أحد هذه الأُمور التي ننظر فيها إلى الزهراء عليها السلام هي هذا القرب من رسول اللّه صلى الله عليه وآله (١) .

إذن ، فهذا الانتماء يعطي الوصي والخليفة والإمام موقعاً (اجتماعياً) متميزاً في الحركة الاجتماعية ، ولعل ذلك أحد العوامل والأسباب في هذا الامتداد .

---

(١) ذكرت في محاضرة سابقة، أن الزهراء عندما أرادت أن تستثير المسلمين تجاه مظلوميتها، تحدثت في البداية عن حقوقها المغتصبة، في الخطبة المعروفة التي يتحدث عنها الخطباء، ولكن في حركة أخرىٰ دخلت الزهراء عليها السلام إلى المسلمين من هذا المدخل، أي مدخل أنها ابنة رسول اللّه، ويجب أن تحمىٰ باعتبار هذه القرابة وهذه الصلة برسول اللّه، وعندما تحدثت مع الأنصار الذين كانوا قد دخلوا مع رسول اللّه صلى الله عليه وآله في ميثاق وعهد، بأن يحموا رسول اللّه وأهله وعشيرته وأقرباءه، وقد تخلفوا عن هذه الحماية بعد وفاته، تحدثت معهم من هذا المدخل وخاطبتهم بصورة خاصة (أيها بني قبلة)، وهذا المنطلق يعبّر عن حقيقة كانت قائمة في الحالة الاجتماعية .